

إستراتيجيات الميتا سرد بين ما بعد الحداثة وتقويض المرجعية السردية

Metanarrative Strategies: Between Postmodernism and the Undermining of Narrative Referentiality

طالبة الدكتوراه / فطيمة باهي
الدكتور / يوسف عطية

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة (الجزائر)

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية والمقاربات البينية جامعة تبسة - E0281900

fatima.bahi@univ-tebessa.dz
youcefattia01@univ-tebessa.dz

تاريخ الإبداع: 2025/10/01 تاريخ القبول: 2026/01/25 تاريخ النشر: 2026/03/15

ملخص: تتغيا رؤية البحث قراءة تحولات الخطاب الأدبي المعاصر، وفهم تيمة الميتاسرد باعتباره أحد المظاهر الأكثر راديكالية في مشروع ما بعد الحداثة السردية، إذ لا يكتفي بتقويض البنى التقليدية التي طالما شكّلت العصب المركزي للفعل السردية، بقدر ما يتجاوزها نحو مساءلة جذرية تطل ماهية السرد ووظيفته وحدود تمثيله، فالميتاسرد لا يُقارب الحكاية بوصفها بنية مكتملة أو مرآة للواقع، وإنما بوصفها فعلاً لغوياً مشروطاً، قابلاً للتفكيك وإعادة التشكل، حيث يُعيد النظر في علاقة النص بذاته وبآلياته التكوينية، من خلال تعرية أدواته، وفضح الاصطناعية الكامنة خلف "وهم" الواقعية، فهو خطاب نقدي داخلي ينشأ من صلب النص، فيشتغل على تفتيت سلطة الراوي المركزي، وإعادة توزيع الأدوار بين المنتج والمتلقي، ممّا يُفضي إلى خلق فضاء سردي متشظّ يُحرّض القارئ على الانخراط التأويلي بدل الاستهلاك السردية السلبي، ومن هذا المنطلق، فإنّ الميتاسرد يمثل موقفاً إيديولوجياً مناهضاً لأيّ بنية سلطوية ضمن الفعل الحكائي، سواء أكانت حُبكةً مغلقة، أو سرداً خطياً، أو صوتاً عليّاً يُوهم بالحياد والمعرفة الكلية، ليغدو الميتاسرد تمظهرًا لوعي نقدي مغاير، يسعى إلى تأسيس أفق سردي مفتوح، يُعيد التفكير في العلاقة بين النص وقارئه، بين اللغة ومعناها، وبين الخيال وسياقات إنتاجه.

الكلمات المفتاحية: ميتاسرد، ما بعد الحداثة، سرد، مرجعية سردية، تقويض.

Abstract: In parallel with the transformations of contemporary literary discourse, *metanarrative* emerges as one of the most radical manifestations of the postmodern narrative project. It does not merely dismantle the traditional structures that have long constituted the central core of narrative practice, but rather moves beyond them toward a fundamental questioning of the very nature of narrative, its function, and its representational limits. Metanarrative does not approach the story as a complete structure or a mirror of reality, but as a conditional linguistic act, open to deconstruction and reformation. It reconsiders the relationship between the text and itself—its formative mechanisms—by laying bare its tools and exposing the artificiality behind the *illusion* of realism.

As an internal critical discourse that emerges from within the text itself, metanarrative works to fragment the authority of the central narrator and redistribute roles between the producer and the receiver. This process leads to the creation of a fractured narrative space that invites the reader into an interpretive engagement, rather than passive narrative consumption.

From this perspective, metanarrative is not merely an aesthetic technique, but an ideological stance that resists all forms of authority embedded in narrative practice—be it a closed plot, linear storytelling, or an omniscient voice that feigns neutrality and total knowledge.

Thus, metanarrative becomes a manifestation of a distinct critical consciousness, aiming to establish an open narrative horizon—one that rethinks the relationship between text and reader, between language and meaning, and between imagination and its contexts of production.

key words: Metanarrative; Postmodernism; Narrative; Narrative Referentiality; Subversion.

مقدّمة:

إنّ التوغّل في أفق الأدب المعاصر يكشف عن تحولات نوعية في الوعي السردى، لعلّ أبرز تجلياتها مفهوم الميتاسرد بوصفه ممارسة نقدية تُقوّض البدايات السردية الراسخة، وتُعيد تشكيل العلاقة بين النص والقارئ، واللغة والمرجعية، والحكاية وآليات إنتاجها، فالميتاسرد يُطرح بوصفه إستراتيجية جمالية ومعرفية تُعيد مساءلة الخطاب السردى من الداخل، عبر اشتغاله على تفكيك بنيته، وتعرية مسلّماته، وفضح سلطته المُضمّرة، فهو خطاب مزدوج يفتح على ذاته بقدر ما يفتح على سياقات التلقي والإنتاج، ليفضح اللعبة السردية في لحظة تشكّلها، ويُحوّل النص إلى مساحة تأمل ذاتي في ماهية الحكى ووظائفه، ولئن كان التقليد السردى يؤسّس لسلطة السارد كونه الضامن لحقيقة الحكاية ومسارها الخطي، فإنّ

الميتا سرد يُقوّض هذه المركزية، ليبرز الاصطناع والتلفيق بوصفهما جوهر العملية السردية، وهكذا يصبح ورشة تفكير مفتوحة تُحاور السياقات الثقافية والسياسية التي تنتج المعنى وتعيد تشكيله، ومن خلال هذا المنظور، يتحوّل الميتا سرد إلى مرآة تُعيد إلينا صورة الأدب وقد تحرّر من سطوة التمثيل، منخرطاً في مساءلة ذاته، بحيث يصير منتجاً للمعرفة لا عن العالم فحسب، بل حتّى عن ذاته كخطاب يُكتب ويُقرأ ويُؤوّل.

ويُجسّد الميتا سرد، في تداخله العضوي مع مناهج ما بعد الحداثة، تحوّلاً حاسماً في بنية الخطاب الروائي، إذ ينهض بوظيفة تفكيكية تستهدف زعزعة المسلّمات السردية التي طالما شكّلت العمود الفقري للرواية الكلاسيكية، فبعيداً عن الهيمنة الخطيّة والمرجعيات الأحادية، يُعاد تشكيل السرد ضمن أفقٍ مفتوح تتشظى فيه الأزمنة وتتداخل فيه الأمكنة، ليعكس بذلك تعقيد التجربة الإنسانية وتناقضاتها، فهو تمثيل لسرد يتجاوز الحكاية لُيفكك أطرها، ويرتقي إلى مستوى وعي نقدي يُشرك القارئ في لعبة المعنى كفاعلٍ في إعادة إنتاجه، وضمن هذا السياق، يظهر التهمك والسخرية بوصفهما آليات اختراق تُزعزع المنظومات القيمة والمؤسسات المعرفية التي طالما فرضت وصايتها على الحقيقة، فالميتا سرد ما بعد الحداثي لا يكتفي بتعرية الأنساق المهيمنة، وإنّما يفتح النص على احتمالات تأويلية لا نهائية تُرجع النظر في طبيعة السلطة السردية مانحةً الخطاب الروائي طاقةً تجديديةً تُحرّره من القوالب الجاهزة، ليغدو فضاءً للتساؤل لا للإجابة، وللهدم قبل البناء، وهذه الرؤية الإشكالية أثارت المفكّرة النقدية وفتحت خيوط البحث لفهم دلالية الخطاب الميتا سרدي انطلاقاً من إشكالية معرفية قوامها: كيف يغدو الميتا سرد فعلاً معرفياً يُمارس من داخل النص لتفكيك آليات السرد التقليدية، وإعادة تشكيل مفهومي الحكاية والسرد بوصفهما أنساقاً ثقافية خاضعة للمساءلة لا أدوات تمثيل بريئة؟

وتتفرع من جوهر الإشكال النقدي أسئلة بحثية تحاور ذاتها، لعل أهمها:

- كيف يساهم الميتا سرد في تقويض السلطة السردية التقليدية، وما هي الآثار المترتبة على ذلك؟
- في أيّ حدودٍ يتحوّل التفاعل بين الميتا سرد والتهمك إلى أداة لهدم أنساق التلقي التقليدي، بحيث يُعاد توجيه القارئ من موقع الاستغراق في الحكاية إلى موقع الوعي النقدي بالممارسات السردية التي تُنتج المعنى؟
- ما هي الأشكال الأدبية التي تتبنى الميتا سرد، وكيف تتحدى هذه الأشكال الفهم التقليدي للنصوص؟

- إلى أي مدى يساهم الميْتا سرد في تعزيز الوعي النقدي للقارئ وتحريره من القيود المعرفية التي تفرضها السرديات الكبرى؟

وعبر تتبع التداخل الحيوي بين الميْتا سرد والتهكم، تبلور هذه الرؤية النقدية بوصفها محاولة للكشف عن التحولات العميقة في علاقة القارئ بالنص، حيث يصبحُ بنيةً مرنةً تُعيد تشكيل ذاتها ضمن فضاء من التفاعل والتأويل، فالميْتا سرد، بما يحمله من وعي ذاتي، لا يقتصر على كسر أنماط السرد التقليدي، بقدر ما يُفعل آليات تُخلخل سلطة السارد وتضع القارئ في موقع المشاركة النقدية لا التلقي السلبي، أمّا التهكم، فيتجاوز وظيفته البلاغية ليغدو أداة تفكيك تُعري يقينيات الخطاب وتزعزع استقراره، مُحدثاً شروخاً في المعنى تدعو القارئ إلى مساءلة النص لا التسليم له، وبهذا التلاقى بين الميْتا سرد والتهكم، يتبدّل النص الأدبي من كونه حاملاً لمعنى جاهز إلى فضاء ديناميكي تُنتج فيه المعاني عبر جدلية مستمرة بين الكاتب والقارئ، لتتجلى بذلك الكتابة المعاصرة كأفق نقدي مفتوح، لا يُعنى فقط بالحكي، وإنّما بتأمل شروطه وإمكاناته، ما يمنح الأدب طابعاً إشكالياً ومركباً يُعيد التفكير في مفاهيم: التمثيل، اللغة، والمعرفة.

1/ فهم الميْتا سرد:

في ظل التحولات الجذرية التي شهدها الفكر والثقافة في عصر ما بعد الحداثة، تجاوز الفن إطاره الجمالي التقليدي ليتحوّل إلى فضاء حيوي يتلاقى فيه تعدد الأجناس وتداخل الوسائط، فقد أُعيد ترتيب أولويات العمل الفني، فغابت هيمنة المادة لصالح الفكرة التي صارت جوهر التعبير، ليصبح العمل الفني خطاباً تأملياً يُعيد قراءة العلاقة بين الواقع وتمثيله، لينبثق الفن المفاهيمي كإعلان قطيعة مع الجماليات الكلاسيكية، حيث لا يستقر المعنى في الشكل، بل في تفاعل المتلقي الذهني، الذي انتقل من موقع المتلقي الساكن إلى شريك نشط في صناعة الدلالة، ومع تعبير ميتشلسن عن مفهوم "الصورة-نص" (Image-text)، تلاشت الحدود الفاصلة بين النص البصري واللغوي، ما دفع إلى إعادة النظر في طبيعة السرد ذاته، الذي أصبح جزءاً من شبكة ثقافية معقدة تمزج بين الفنون والمعارف، وتُعيد صياغة أشكال التعبير، ليفتح السرد أبواب الفلسفة، التأويل، والنقد الفني، متفاعلاً مع مفاهيم الميْتا سرد التي تقدّم رؤيةً جديدة للنص بوصفه كياناً متعدد الطبقات، عابراً للأنواع، ومنفتحاً على حوار مستمر بين الخطابات المختلفة، ليعكس بذلك تعقيدات الذات المعاصرة وتَشظيئاتها في تمثيل الواقع¹.

ولم يتبلور مفهوم "الميْتا سرد" كمصطلح نقدي واضح المعالم إلا مع التحولات الجذرية التي شهدها الخطاب السرد في سبعينات القرن العشرين، حيث قام الروائي والناقد الأمريكي

ويليام غاس بتوظيف مصطلح *meta-fiction* عام 1973 في كتابه *الأدب القصصي وأشكال الحياة*، ليصف نوعاً من الروايات التي تنخرط في مساءلة ذاتها، وتعكس وعيها بكونها بنية لغوية متخيّلة تتأمل فعل السرد ذاته، ورغم شيوع نسبة المصطلح إلى غاس، إلا أنّ بعض الباحثين يرون أنّ روبرت شولتز قد سبقه إلى طرح المفهوم في مقالة نُشرت في مجلة *The Iowa Review*، ما يكشف عن تباين في تحديد الجذور الأولى لتداول المصطلح، وقد ترافق انتشار هذا المفهوم مع تحولات ما بعد الحداثة التي وسّعت من إمكانات التخيل السردية، فبات الميتاسرد يُستخدم للإشارة إلى أشكالٍ من الكتابة الروائية تُقوّض مركزية السارد، وتُفكّك تسلسل الحكاية، وتُعرّي البنية الداخلية للنص، وبمرور الوقت، تجاوز المصطلح حدوده الأولى ليلاّمس قضايا أعمق تتعلق بمرجعية الخطاب، وتداخل الأصوات، وإشكالية التلقّي، ما جعله أداة تحليلية خصبة في مقارنة السرد المعاصر، سواء في المنجز الغربي أو العربي، بوصفه تقنية تفتح النص على ذاته وعلى أسئلته التكوينية².

فمصطلح "الميتاسرد" في شقّه اللغوي يتألف من جزأين: "ميتا" و"سرد"، وكلمة "ميتا" ذات أصل أجنبي (le méta) وتعني "ما وراء" أو "ما بعد"، في إشارة إلى شيء يتجاوز أو يتبع الظاهرة الأصلية، لذا، يمكن فهم الميتاسرد على أنه سرد عن السرد ذاته، أو عملية إبداعية تتجاوز حدود السرد التقليدي لتتأمل في آليات بناء الحكاية وأسسها، وبهذا المعنى، فلا يكتفي الميتاسرد بنقل الأحداث والحكايات، وإنّما يتوجّه نحو نقد وتحليل شروط إنتاج السرد، ما يجعله طبقة إضافية من التأمل تُعيد تعريف النص وعلاقته بالمتلقي، وبالنظر لدلائلية الميتاسرد اصطلاحاً، فيُعرّف على كونه شكلاً من أشكال السرد الذي يُعيد التفكير في بنيته وآلياته، في حين يُشير الميتافكشن إلى الكتابة التي تنعكس على نفسها وتكشف عن عمليات إنتاج النص، وهذا التمييز يُبرز الفروق الدقيقة بين النصوص التي تستعرض سردها الداخلي كموضوع، وتلك التي تفكّك قواعد السرد التقليدي بطريقة نقدية، ومن ثمة، يمكن فهم أنّ الميتاسرد يُمثّل أداة تحليلية مهمة في فحص العمق البنيوي للنصوص، بينما الميتافكشن يضيف بُعداً إبداعياً يعكس وعي النص بذاته، وبالتالي، يشكّل التفريق بين هذين المفهومين حجر الزاوية في الدراسات الحديثة التي تسعى إلى استكشاف آليات السرد وفهم العلاقة بين النص والقارئ في ضوء التحولات المعاصرة³.

ويعرّف قاموس أوكسفورد مصطلح "الميتاسرد" أو "ما وراء السرد" (Metafiction) بأنه شكل سردي يميّز نفسه بوعي السارد لزيّف العمل الأدبي، معتمداً على التهكم أو الخروج عن القواعد السردية التقليدية. من جهتها، تصف الروائية والنقدية ليندا هتشيون الميتاسرد، أو الميتافكشن، بأنه "رواية تحكي عن نفسها"، تتضمن تعليقاً داخلياً على طريقة سردها وهويّتها

الذاتية. وترى هتشيون أنّ القص الميتافكشني ليس جنسًا أدبيًا مستقلًا، بل نزوعًا ينبثق من داخل النص الروائي ذاته ليُعيد النظر في آليات السرد وأساليبه التي تُشكّل الواقع الافتراضي للرواية. حيث يشبه هذا النوع من السرد النظر في المرآة التي تعكس إجراءات البناء التخيلي، وفي الوقت نفسه، قد تعمل على تفكيكه وإعادة تشكيله.⁴

أمّا عن مصطلح السرد narrative " يقول برنس gerald prince أنّ معنى المصطلح هو " قصّ حادثة واحدة أو أكثر خيالية كانت أو حقيقية بحيث يكون معناه منصبًا على النتيجة والعملية، والهدف، والفعل، والبناء، وإدراك البناء الخاص بالقصة، واستخدام المصطلح يدلّ على الاقتصار على تركيب يضمّ أيّ عنصرين من هذه العناصر الستة"⁵

حيث يرى جيرالد برنس أنّ مفهوم الميتاسرد (Metanarrative) أو (Metafiction) يشكّل مفتاحًا لفهم التحولات التي طرأت على السرد الحديث، لاسيما في إطار ما بعد الحداثة، فهو يسلّط الضوء على أنّ السرد هو تركيب بنائي يتألف من عناصر مثل: الهدف، الفعل، البناء، وكيفية إدراك هذا البناء، ومن اللافت أنّ برنس يؤكّد على إمكانية قيام السرد حتى على أساس عنصرين فقط من هذه العناصر، مما يبرز أنّ جوهر السرد يكمن في الطريقة التي تُشكّل بها القصة وكيفية إدراك القارئ لها، لا في مجرد الوقائع نفسها، وهذا التوجه يُرجع النظر في طبيعة السرد التقليدي ويطرح الميتاسرد كأداة نقدية تُمكن من قراءة النصوص بوصفها عمليات ذاتية التأمل داخل بناء السرد ذاته.

ما يبرز دور الميتاسرد في كونه أداة تعيد النظر إلى مكونات السرد التقليدي، حيث يجعل من عملية بناء القصة نفسها موضوعًا للنقد والتأمل، فهو يُعيد فتح حوار حول بنية السرد، ولاسيما عنصر "إدراك البناء" الذي أشار إليه برنس، ليكشف عن آليات التشكيل الداخلي للنص، بدلاً من التعامل مع الفعل والبنية والهدف كمسلمات ثابتة، يعمل الميتاسرد على تفكيكها وإظهار التلاعب بها، ففي السرد التقليدي، يتركز الانتباه على تسلسل الفعل ونتائجه، أمّا في الميتاسرد، فيُعلّق السرد ليدخل الراوي في نقاش مع ذاته، متسائلاً عن معنى الأفعال واحتمالات سرد القصة بطرق مختلفة، وبذلك، يتحول "إدراك البناء" إلى جوهر السرد، متقدّمًا على الأحداث نفسها، مما يُعيد تشكيل تجربة القراءة ويحوّل النص إلى فضاء نقدي ذاتي التأمل.

كما يشير فاضل ثامر إلى مفهوم "انتهاك شروط الكتابة" بوصفه جوهر الميتاسرد، حيث يتعمّد هذا الشكل السردى الخروج عن القواعد التقليدية المتعارف عليها بهدف تفكيكها ومساءلتها بوعي نقدي. فبدلاً من السير بسلاسة نحو سرد الحكاية، يتوقّف النص الميتاسردى ليكشف عن أدواته وآلياته، مجسّداً نوعاً من الوعي الذاتي الذي يُعيد تشكيل تجربة القراءة،

ومن منظور نقدي، يرى ثامر أنّ الميتاسرد يمثل امتدادًا للخطاب الحداثي وما بعد الحداثي، إذ يشارك في تفكيك البنى السردية الكلاسيكية والتشكيك في المسلّمات الجمالية والتقنية للرواية التقليدية، وبهذا المعنى، يؤطّر ثامر الميتاسرد كظاهرة أدبية نقدية مهمة تعكس التحولات العميقة في الفكر الجمالي السردى، وتبرز كجزء من حركة ثقافية أوسع تسعى لإعادة تعريف حدود السرد ودوره في الأدب المعاصر، ليُمثل الميتاسرد مصطلحًا نقديًا أدبيًا يُحيل إلى السرد الذي يتناول بنيته الداخلية وآليات تشكّله بوصفه موضوعًا للخطاب. ويُعد الميتاسرد من السمات المميزة للأدب الحديث؛ إذ يُساهم في تفكيك الأطر السردية التقليدية، ويتيح استكشاف أنماط الكتابة وتقنياتها بصورة واعية ومتعمدة، ويتسم هذا النمط السردى بتعدد أساليبه وتنوع مقارباته مما يعكس اختلاف التصورات حول طبيعة النص الأدبي وحدود وظيفته.

وقد عرّفه الناقد جيرار جينيت، "Any intrusion by the extradiegetic narrator or narratee into the diegetic universe (or by diegetic characters into a metadiegetic universe, etc.) in short, any violation, in the narration, of the levels of diegesis constitutes a metalepsis." ⁶

حيث يقرّ الناقد جيرار جينيت أنّ الميتاسرد هو نوع خاص من السرد يتميز بوعيه الذاتى، حيث يتوقف ليتناول نفسه وشروط بناءه، فالميتاسرد، وفقًا لجينيت، هو "السرد الذي يتحدث عن نفسه وعن طريقة تشكّله"، مما يعني أنّ النص يصبح مدرّكًا لعناصره الأساسية مثل: الحبكة، والشخصيات، والبنية الزمنية، وينقل هذا الوعي إلى القارئ، وهذا الوعي الذاتى للنص يمثل دعوة صريحة لإعادة التفكير في القواعد والمبادئ التقليدية التي كانت تحكم العمل الأدبي؛ ليتحوّل النص إلى فضاء نقدي يفتح أمام القارئ آفاقًا جديدة لفهم السرد، إذ يصبح القارئ شريكًا في عملية التأويل، ويُعاد تشكيل العلاقة بين النص والمتلقي في إطار من الحوار المستمر حول طبيعة السرد ذاته، فالميتاسرد حسب جينيت يتأسس على:

1- وعي الذات والخصائص السردية: من خلال مفهوم الميتاسرد، يُظهر النص وعيًا بجميع العناصر السردية، مما يتطلب من القارئ إعادة التفكير في المفاهيم التقليدية التي تحكم العمل الأدبي. حيث يتعدّى هذا الوعي بالذات إلى سؤال للقارئ حول كيفية فهم هذه الأحداث ومعانيها، ودور السارد في تشكيل تلك المعاني.

2- دعوة للتفاعل: المدلول الأعظم للميتاسرد، من منظور جينيت، هو دعوة القارئ لممارسة نقد داخلي على النص ذاته من خلال كسر الجدار الرابع والتواصل المباشر مع القارئ، حيث يُمكن للكتاب أن يكسروا الحدود بين النص والمشاهد، مما يعزز التفاعل الأمثل مع الأفكار

المركزية للنص، وههنا إشارة هامة إلى الأدب التفاعلي الذي يفتح الأفق أمام الممارسة الميتا سردية.

3- إعادة التفكير في المبادئ التقليدية: يساهم الميتا سرد من خلال هذه الدعوة للتأمل الذاتي في إعادة تقييم المبادئ التقليدية للتأليف، مثل: الفكرة القائلة بأن السارد يجب أن يكون غير مرئي أو أن القصة يجب أن تتبع تقنياتها المعيارية لتكون فعالة، حيث يعمل الميتا سرد على كسر هذه الحدود، مُعطياً أهمية أكبر للدور الفعّال للقارئ والسارد على حدٍ سواء. وفي تعريف آخر لباتريشيا ووخ: "إن رواية النص مصطلح يُراد له أن يوازي أطروحات ما بعد الحداثة أو (ما وراء الرواية وقد أُثير هذا المصطلح في النقد الأنجلوسكسوني ليستوعب أمداء الكتابة الروائية التي تستدعي الانتباه إلى ذاتها بشكل واعٍ ومقصود؛ فتنتظم على أنها صنعة لكي تثير التساؤل حول العلاقة بين التخيل والواقع"⁷، فهذا القول يناقش مصطلح "رواية النص" كونه قريباً من مفهوم "ما وراء الرواية (Metafiction)" الذي اشتهر في نقد ما بعد الحداثة، خاصة في السياق الأنجلوسكسوني، كما يدل المصطلح على نوع من الروايات التي تكشف عن وعيها الذاتي كعمل تخيلي مصنوع، مما يخلق تساؤلات فلسفية عن الحدود بين الخيال والواقع.

ويتقاطع مصطلح الميتا سرد مع مصطلحات مختلفة، فالرواية كيانٌ لغويٌّ متأملٌ في ذاته، بينما يمثّل "رواية النص" تحولاً مفاهيمياً في النظر إلى العمل الروائي، حيث يُعامل معه كبناء مدرّوس، يعكس وعياً بأساليب تشكّله وبنيتة الداخلية، لا كحكاية تُروى من أجل المتعة فقط، أمّا مصطلح "ما وراء الرواية (Metafiction)"، فيُحيل إلى تلك الكتابات التي تكشف عن طبيعتها المختلفة، وتُظهر الوعي الذاتي للنص بوصفه تركيباً لغوياً محكوماً بقرارات أسلوبية وسردية واعية، فتخرق بذلك وهم الواقعية وتفكّك الحدود بين الواقع والتخيل، لتُصبح الكتابة السردية فعلاً نقدياً مزدوجاً: فهي تروي وتُحلّل في آنٍ واحد، وتُنتج التخيل وتفكّكه، مقدّمة للمتلقي رواية تتحدث عن روايتها، وتكشف آليات تشكّلها السردية، فهذا التوجّه يتّسق مع روح ما بعد الحداثة، التي تُشكّك في الخطابات الكبرى مثل: الواقعية والموضوعية، وتنظر إلى الكتابة بوصفها ممارسة فكرية تتجاوز حدود التمثيل المباشر للعالم

وهكذا، تتحول الرواية من نص يحاكي الواقع إلى مساحة تأمل فلسفي تضع القارئ أمام أسئلة حول طبيعة الحكى، وحدود التخيل، ودور اللغة في تشكيل المعنى، حيث تُدخل القارئ في صميم الإشكاليات التي تحكم تمثيله. وعلى الرغم من أنّ هذا المنحى يُثري التجربة الجمالية للنص، ويمنحه عمقاً تركيبياً ومعرفياً، إلا أنّه قد يضع القارئ أمام معضلة التلقي، إذ تتراجع

بساطة التواصل لصالح التعقيد والتأمل، وهو ما يجعل من الرواية الحديثة فنًا مفتوحًا على احتمالات لا نهائية من الفهم والتأويل.

وفي كلام لعباس عبد جاسم عن الميتا سرد " وإن كان وليام ج جراس استخدم لأول مرة الميتا سرد في كتابه الأدب القصصي وأشكال الحياة عام 1970 فإن باتريشيا ووخ بلورته بصيغة أكثر تأطيرا وتكثيفا لحمولته المفهومية على نحو حدّدت فيه الميتا سرد باعتباره نزعة ضمن الرواية وليس جنسا ثانويا من الرواية، وهي نزعة طيفية تتخذ من التخيلية موضوعا لها"⁸، إذ ينبني هذا الطرح النقدي على مسار تطوّر مفهوم "الميتاسرد" بوصفه ظاهرة سردية تتجاوز التصنيفات التقليدية، لتتخذ موقعا مركزيا في التفكير الأدبي ما بعد الحداثي، فقد جاءت أولى المحطات المفصلية مع وليم ج. غاس سنة 1970، الذي استخدم مصطلح "الميتافكشن" لوصف نصوص تنزع إلى التأمل في طبيعتها السردية، مشيرًا إلى قدرة السرد على الانخراط الواعي في مساءلة أدواته وتعرية علاقته بالواقع من جهة، وبالبناء الاصطناعي للنص من جهة أخرى، فهذا التأسيس المبكر منح المفهوم بُعدًا تجريبيًا يرتكز على وعي النص بنفسه، ويتقاطع الحكي مع الواقع وأشكال تمثيله.

ثم جاءت باتريشيا ووخ لتعزّز المفهوم، لكن من خلال نقله إلى مستوى أكثر نضجًا وتركيبًا، مؤكدة أنّ الميتاسرد يُعامل بوصفه "نزعة طيفية" تتسلل إلى بنية الرواية من داخلها، وتتجلى في مواقف متعددة تمارس فيها الرواية وعيًا بذاتها، وتُحوّل تخيليتها إلى موضوع للسرد ذاته، وهذا يعني أنّ الرواية تروي أيضًا كيف تُروى، وتفكّك تقنياتها ومكوناتها وتضع القارئ أمام طبقة تأملية ثانية تقوِّض سداجة التلقي وتدفعه نحو وعي نقدي بالسرد بوصفه بناءً لغويًا وتخيليًا لا مرآة بريئة للواقع، فهذا التمييز الذي تقدّمه ووخ، بين الميتاسرد كنزعة لا كنوع، يتيح للمفهوم أن يتخطى الحدود الصارمة للأجناس الأدبية، فيتغلغل داخل الأعمال الروائية بمختلف توجهاتها، سواء عبر التلاعب الساخر بالبنية التقليدية، أو من خلال التلميح الخفي إلى هشاشة البناء التخيلي، دون أن يستلزم ذلك دومًا التصريح المباشر بالكتابة أو السرد.

لكن رغم متانة هذا التأطير المفهومي، يظلّ هناك تساؤل مشروع حول كيفية تمثّل هذه "الطيفية" داخل النصوص؛ إذ لم توضّح ووخ - في هذا السياق - بجلاء كافٍ حدود هذه النزعة أو تمظهراتها النصية الدقيقة: هل تُقاس بدرجة وعي السارد؟ أم بانعكاس عناصر البناء القصصي على ذاتها؟ وهل يكفي التلميح لاصطناعية السرد ليُدرج النص ضمن الميتاسرد، أم أنّ درجة الانخراط في التفكيك تحدد ذلك؟، ومع ذلك، يظلّ تصور الميتاسرد كنزعة مرنة لا نوعًا قارًا ومنسجمًا تمامًا مع روح ما بعد الحداثة، التي تشكّك في صرامة التصنيفات، وتفكّك الحدود بين الأجناس، وتعدّ الفن ممارسة سائلة، تتقاطع فيها الخطابات

وتتجاوز فيها الأشكال دون مركز ثابت، ولهذا، فإنّ إعادة قراءة الميثا سرد من هذا المنظور لا تمنحه فقط موقعاً داخل التاريخ النقدي، بل تفتحها أيضاً على إمكانيات لا نهائية للتموضع داخل النصوص المعاصرة.

2/ الميثا سرد في النصّ الأدبيّ العربيّ:

يندرج مفهوم الميثا سرد ضمن أكثر الظواهر السردية تعقيداً وتداخلاً في إطار الرواية المعاصرة، حيث يمثل بنية داخلية تنبع من قلب العمل السردية ذاته، فالخطاب الميثا سري لا ينفصل عن نسيج الحكى، وإنّما يتشابك معه ليُنتج طبقة تأملية تجعل من السرد موضوعاً له، ومن فعل الحكى نفسه مادةً للقصّ، وضمن هذا السياق، يتجاوز الميثا سرد كونه "حديثاً عن السرد" ليغدو وعياً نقدياً ذاتياً يمارسه النص على نفسه، إذ يتوقّف السارد عن تقديم الأحداث ليعلّق على آليات السرد، أو يفكّ العلاقة بين الكاتب والقارئ، أو يشكّك في حدود التخيل والواقعية، ومن ثمة، فالميثا سرد يُعيد تشكيل المنظومة السردية برمّتها مفسحاً المجال لسردٍ يعي ذاته ويتأمل شروط إنتاجه، فيخرق بذلك خطيّة الحكى، ويضع المتلقي أمام تجربة قراءة مزدوجة: قراءة للحكاية، ليصبح النص مساحة وعي سردي منفتح يفضح اصطناعيته، ويحرّض القارئ على تجاوز التلقي السلي نحو مقارنة نقدية يتقاطع فيها التأليف والتأويل، ويتلاشى فيها الحد الفاصل بين البنية ومساءلتها.

فالميثا سرد يشير إلى نوع خاص من السرد الذي يركّز على الذاتية والسياقات الخاصة بعملية السرد نفسها، حيث عرّفه جميل حمداوي: "يُقصد بالميثا سرد أو الميثا قصص *métarécit* ذلك الخطاب المتعالي الذي يصف العملية الإبداعية نظرية ونقدًا كما يُعنى هذا الخطاب الوصفي برصد عوالم الكتابة الحقيقية والافتراضية والتخيلية واستعراض طرائق الكتابة وتشكيل عوالم متخيل السرد، وتأكيد صعوبات الحرفة السردية ورصد انشغالات المؤلفين السرد وتبيان هواجسهم الشعورية واللاشعورية، ولاسيما المتعلقة بالأدب وماهيته ووظيفته واستعراض المشاكل التي يواجهها المبدعون وكتاب السرديات بشكل عام"⁹، ويمكن شرح علائقية هذا المفهوم وفق النقاط التالية:

1/2 المضمون ودلالات المفاهيم: يقوم الميثا سرد بوصفه خطاباً يتجاوز البنية التقليدية للحكي، على وعي ذاتي عميق بفعل السرد ذاته، إذ ينخرط في مساءلة بنيته من الداخل، كاشفاً عن طبيعتها الاصطناعية وعلاقاتها المعرفية والجمالية، فحين يُوصف الميثا سرد بأنه "خطاب متعال"، فإنّ المقصود ليس تعاليه عن النص، بل قدرته على أن يحتوي ذاته ويُحلّل آلياته وهو يمارسها، فيغدو السرد هنا أداة للتأمل في السرد، لا مجرد وسيلة للتمثيل أو المحاكاة، ومن هذا المنظور، لا يُقدّم النص الميثا سري القصة كما هي، بقدر ما يعزّي أدوات

إنتاجها، ويضع موقع الكاتب والسارد والقارئ موضع تفكير مستمر، وبهذه الطريقة، يتحول النص إلى فضاء نقدي داخلي، يتقاطع فيه الإبداع مع التفكيك، ويغدو الحكي ممارسة معرفية تُعيد النظر في طبيعة الأدب ووظيفته، بعيداً عن التلقي الساذج أو التصديق المباشر لمأروية الحكاية، حيث يقدم الميْتاسرد مقارنة سردية تأملية تتجاوز الحكاية إلى تفكيك شروط إنتاجها، ويتحول فعل السرد ذاته إلى موضوع للتأمل والتحليل من خلال استحضار العوالم المتعددة - الواقعي، التخيلي، والافتراضي - يطرح النص تعددية في مستويات البناء والتلقي، كاشفاً عن عمق التركيب النصي وتعقيد علاقة السرد بالواقع والتخيّل، كما يُبرز الميْتاسرد صعوبة الكتابة نفسها، فلا يخفي مأزق الحرفة، حيث يواجهه كجزء من التجربة الفنية، مظهرًا ارتباك الكاتب، ووعيه المركب بالفعل السردية وهو جسد الوجودية والمعرفية، وفي هذا الإطار، يُقارب الميْتاسرد ما يُعرف بـ "السرد الذاتي التفسيري"، حيث تنكشف آليات الكتابة من الداخل، وتُفصح اللعبة السردية بوصفها عملية لا تخلو من التوتر والأسئلة.

2/2 البُعد المنهجي للنص: يستبطن القول السابق توجهاً ما بعد حداثي، إذ ينطلق من مسلّمات تقويض السلطة السردية التقليدية، وتفكيك العلاقة الأحادية بين الكاتب والنص، والقارئ والمعنى، ليبدو النص متأثراً بنظريات ما بعد البنيوية ونظرية موت المؤلف عند بارت، حيث لم يعد النص يعني فقط ما يقوله بل كيف يُقال ولماذا يُقال بهذه الطريقة، وينطوي هذا الطرح على تجليات سردية تعكس حضوراً واضحاً للسرد النقدي الذاتي، حيث تتحول الكتابة إلى فعل تأملي يعكس قلقاً فنياً ووجودياً متجذراً في وعي النص بذاته، فالميْتاسرد هنا يُمارس بوصفه استجابة جمالية وفكرية لرفض الخطية، وكمقاومة ضمنية للبنى المغلقة والنهائية التي تقيد النص، لتُصبح الكتابة شكلاً من أشكال المقاومة الرمزية، تُفكك ذاتها بقدر ما تُشيد خطابها، فتفصح عن وعي داخلي ينبض برغبة مستمرة في زعزعة يقين الحكاية، وفي إعادة النظر في شروط تمثيلها للعالم.

3/2 التوتّر بين التخييل والمرجعية:

يلتقط النص بذكاء توتراً جوهرياً في بنية الميْتاسرد من خلال إشارته إلى "عوالم الكتابة الحقيقية والافتراضية والتخيلية"، حيث تنكشف إشكالية المركز السردية: هل تمثل الرواية العالم، أم تخلقه؟ فالميْتاسرد لا يسعى لحسم هذا السؤال، حيث يشتغل عليه بوصفه فضاءً خصباً للتأمل، مفكّكاً مرجعية النص وكاشفاً عن اصطناعيته، وفي الوقت ذاته، لا يقطع صلته بالواقع، بل يُبقيه حافّة مستمرة للتوتر والاستدعاء، ليتحوّل التخييل إلى مركز الفعل السردية، لا بوصفه بديلاً عن الواقع، وإنّما بوصفه طريقة لإعادة مساءلته.

4/2 الميْتاسرد كنوع من الكتابة المضادة:

يمكن فهم الميتاسرد في هذا السياق بوصفه كتابة مضادة، لا تسير في ركاب السرد التقليدي بل تتمرد عليه، فهو خطاب يُعاد من خلاله مساءلة المسلّمات السردية التي طالما حكمت فعل الكتابة. إنّه يقف في مواجهة السرديات الكبرى التي تدّعي امتلاك الحقيقة، ويرفض اليقين السردى الذي يُقنّ المعنى ويُغلقه، كما يُفكك مركزية المعنى الواحد لصالح التعدد والانفتاح، ولا يكتفي بذلك، بل يززع الأطر الثابتة للحبكة والشخصيات، كاشفًا عن طابعها الاصطناعي، وبذلك، يُمثّل الميتاسرد خطابًا مقاومًا يُنتج سردًا نقديًا يتحدى أنظمتها التقليدية، ويفتح النص على احتمالات تأويلية لا نهائية، فهو دعوة لقراءة النص الأدبي بوصفه فضاءً مفتوحًا للصراع بين الكاتب والنص، بين الذات واللغة، وبين الشكل والمضمون، وهذا القول يُعد مدخلًا مفيدًا لفهم الميتاسرد من حيث هو خطاب يعري نفسه ويناقش أدواته من داخل النص، وقد وُفق في إبراز العلاقة بين الكتابة والوعي بالكتابة، لكنه يحتاج إلى ضبط المفاهيم، كما أنّ انفتاحه على أبعاد اللاشعور والهواجس الشعورية يشكّل توسيعًا مهمًا لفهم الأدب بوصفه ممارسة وجودية فنية تساءل العالم والنص والذات معًا، حيث بدأ يبرز كأداة تعبيرية فريدة تتيح للكتّاب إمكانية استكشاف وفهم عمليات السرد وأساليبه بشكل عميق مثلما هو الحال في الأدب الغربي، حيث يسعى الميتاسرد في الأدب العربي إلى تحقيق عدد من الأهداف الفنية والمعرفية، تتجلى في النقاط التالية:

أ- استكشاف قضايا السرد:

يمكن فهم الميتاسرد في هذا السياق بوصفه كتابة مضادة، لا تسير في ركاب السرد التقليدي بل تتمرد عليه، فهو خطاب يُعاد من خلاله مساءلة المسلّمات السردية التي طالما حكمت فعل الكتابة، فهو يقف في مواجهة السرديات الكبرى التي تدّعي امتلاك الحقيقة، ويرفض اليقين السردى الذي يُقنّ المعنى ويُغلقه، كما يُفكك مركزية المعنى الواحد لصالح التعدد والانفتاح، ولا يكتفي بذلك، بل يززع الأطر الثابتة للحبكة والشخصيات، كاشفًا عن طابعها الاصطناعي، ومن ثمة، فالميتاسرد خطابٌ مقاومٌ يُنتج سردًا نقديًا يتحدى أنظمتها التقليدية، ويفتح النص على احتمالات تأويلية لا نهائية.

2- الوعي بالعمليات السردية:

يجسّد الميتاسرد إدراكًا عميقًا من قبل الكتّاب بالبُنى السردية السائدة وآليات اشتغالها داخل النصوص، مما يمنحهم قدرة على مساءلتها من الداخل، فهذا الوعي لا يقتصر على كشف التقاليد السردية بقدر ما يسمح بتقويضها وإعادة تفكيكها؛ فيتحوّل النصّ إلى مختبر لتجريب أشكال جديدة من التعبير السردى وإعادة تشكيل الأنماط القديمة خارج قوالبها

المستقرة، وبذلك، يُعيد الميثا سرد تشكيل النص، بالإضافة إلى إعادة صياغة طرق قراءته نقدياً، فاتحاً المجال أمام أفق تأويلي أكثر تنوعاً وتجددًا.

3- البُعد الثقافي والتاريخي:

يشكل الميثا سرد أداة فاعلة في تفكيك البنى الثقافية والتاريخية التي تحكم فعل الكتابة وتؤطر تمثيلها، إذ يطرح الحكاية ويغوص في شروط إنتاجها وخلفياتها الرمزية؛ من خلال وعيه الذاتي وتعبيره آلياته، ليفتح الميثا سرد المجال أمام الكتاب لاستكشاف التحولات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس في نسيج السرد، كما يمنحهم إمكانية مساءلة الهويات الثقافية السائدة، وكشف الأعراف الضمنية التي تشكل الوعي الجمعي، ليتحوّل النص إلى فضاء نقدي يتجاوز التخيل، ليلاّمس قضايا الواقع من موقع إبداعي واعٍ يُعيد تأويل العلاقة بين الأدب والسياق الذي يُنتجه.

4- تجديد الفهم الأدبي:

يعدّ الميثا سرد بمنزلة دعوة صريحة للقراء للانخراط بوعي نقدي أعمق مع النصوص، إذ يدفعهم إلى التأمل في آليات السرد ذاته وليس مجرد استهلاك القصة. عبر تسليط الضوء على تعقيدات صناعة السرد والأسئلة التي يغفلها الخطاب التقليدي، فيوسّع الميثا سرد فضاء التفاعل بين النص والقارئ، محوّلًا القراءة إلى تجربة فكرية حيّة. في السياق العربي المعاصر، ويصبح الميثا سرد أداة إبداعية جوهريّة تسمح للكتاب بإعادة تشكيل الأساليب السردية وتجاوز الأنماط الثابتة، معبرًا بذلك عن الطموح نحو تجديد السرد بما يعكس تعدد أبعاد الحياة والهوية والثقافة، ومنح الأدب قدرة على التطور والابتكار المستمر

2- الخطوط العريضة للميثا سرد:

يمكن تحديد بعض الخصائص الأساسية للميثا سرد في الأدب العربي مثل:

- **الوعي الذاتي:** يسعى الكتاب العرب إلى توظيف الميثا سرد لإظهار الوعي الذاتي في نصوصهم مُشيرين إلى سلطتهم ككتاب وكيفية تشكيلهم للمعاني.
- **تفكيك البنى التقليدية:** يُستخدم الميثا سرد لتجاوز الأنماط السردية التقليدية ومساءلة القواعد السردية المعتادة، مثل: التلاعب بالزمن أو استبدال السرد الخطي بالأساليب غير الخطية.
- **تحفيز القارئ:** يعزّز الميثا سرد انخراط القارئ من خلال دعوته للتفاعل مع النص، مُهيئًا الفرصة له لتساؤلات حول الشكل والمضمون.

3/ أمثلة على الميثا سرد في الأدب العربي:

أ/ أمثلة على الميثا سرد في الأدب العربي القديم:

لقيت الظاهرة السردية المعروفة بالميتاسرد (Metanarrative) دورًا متزايد الأهمية في الأدب العربي القديم وصولاً للمعاصر، حيث تتجاوز وظيفة السرد التقليدية لتصبح انعكاسًا وتأملاً ذاتيًا في طبيعة الكتابة وآلياتها، فمن خلال الميتاسرد، يتحول النص الروائي إلى فضاء يعكس وعي الكاتب بعملية السرد نفسها، ويمنح القارئ فرصة لإدراك الطبقات المتعددة للحكاية، والتمحيص في علاقة النص بالواقع والخيال، وبهذا الشكل، يصبح الميتاسرد أداة نقدية وفنية تُثري التجربة الأدبية فاتحةً آفاقًا جديدة لفهم النصوص العربية، ومُعززة قدرة الأدب على مواجهة التحولات الثقافية والاجتماعية في عالمنا المعاصر.

* ألف ليلة وليلة

يمثل عمل "ألف ليلة وليلة" أحد أبرز الأعمال التي تجسّد مفهوم الميتاسرد في الأدب العربي، حيث يتسم بنمط سردي معقد وواعٍ يُظهر إدراكًا عميقًا لطبيعة السرد وآلياته، ويتألف النص من شبكة متشابكة من الحكايات التي تُروى ضمن إطار سردي أكبر، مما يخلق ما يمكن وصفه بالطبقات السردية المتعددة، وهو أسلوب يكشف عن قدرة النص على تجاوز السرد التقليدي البسيط إلى بناء سردي غني ومتداخل، فشخصية شهرزاد التي تتولى سرد الحكايات ليست مجرد راوية تقليدية، حيث تُمثل عنصرًا ذا وعي ذاتي بالسرد؛ إذ تستخدم الحكايات كأداة إستراتيجية للبقاء والنجاة في مواجهة مآسٍ اجتماعية وسياسية تهدد حياتها وحياة الآخرين عبر هذا الاستخدام المتعمد للحكي، لتتحول الحكايات إلى ما يشبه الكيان الحي الذي يتفاعل مع محيطه، ويرتبط بشكل وثيق بالواقع الاجتماعي والسياسي المحيط به، ما يجعل النص أكثر عمقًا وتعقيدًا، وهذا البناء السردى المتداخل يجعل "ألف ليلة وليلة" نموذجًا مثاليًا لتمييز العلاقة التوتيرية بين الواقع والخيال، حيث يسائل السرد ويُعيد تشكيل واقع الراوي والمستمع على حدّ سواء، لينجح النص في إحداث وعي لدى القارئ حول الدور الذي تؤديه الحكايات كوسيلة للتأمل والتعبير عن الصراع الداخلي والخارجي، ممّا يثري تجربة القراءة وبعمق فهمنا لكيفية تشابك السرد مع الواقع والخيال، وينفتح على آفاق واسعة من التأويل والتفسير، ليصبح "ألف ليلة وليلة" ظاهرة سردية مُتطوّرة تدمج بين فنّ الحكي ووعي النص بذاته، ما يجعله نقطة ارتكاز مهمة لفهم الميتاسرد ودوره في إعادة تشكيل السرد الأدبي العربي التقليدي وتحويله إلى مساحة حيوية للتفاعل والتأمل النقدي.¹⁰

ب/ أمثلة على الميتا سرد في الأدب العربي الحديث:

لقد ساهمت تحولات الكتابة الأدبية في تغير خارطة الكتابة وكسر نمطية الخطاب الإبداعي، حيث اتجهت معظم النصوص لمحاكاة خصوصية النص وفق تقنيات نصانية صنعت فُرادة أدبية، وجمالاً تصويرياً لا يوصف، فتداخلت الأجناس، وتنوعت مقاليد

التمثيل والتشكيل الإبداعي، وكما أسلفنا الذكر، فالميثا سرد يعدّ نموذجاً لأحد التقنيات التي أسست لوعي نصاني قوامه ضرورة تجاوز الكتابة الكلاسيكية ودمج عناصر جديدة بين السرد وبقية الأجناس، مانحة النص هوية مخالفة لمعايير الكتابة حيث يصبح المتخيل واقعاً، والواقع متخيلاً ذاتياً يفكك شفراته متلقٍ يافع عارف بما وراء السرد من جماليات نصانية، والناظر في مضامين السرد الحديث والمعاصر يجد رواية "شهيأ كفراق" لأحلام مستغاني التي تمثل نموذجاً بارزاً في الأدب العربي المعاصر الذي استفاد من تقنيات الميثا سرد كأداة فنية وجمالية تتجاوز الحدود التقليدية للسرد، حيث تميّزت مستغاني في هذه الرواية بقدرتها على توظيف اللغة بأسلوب مبتكر، حيث تتحول اللغة إلى عنصر فاعل يتداخل مع البنية السردية، ممّا يجعل السرد نفسه موضوعاً للتأمل والنقد الذاتي، كما يظهر الميثا سرد في الرواية من خلال تعليق النص على آليات سرده، ووعيه الذاتي بعملية البناء السردية، ما يؤدي إلى تفكيك الأطر التقليدية التي كانت تحكم العلاقة بين الكاتب، الراوي، والقارئ، فهذه الممارسة تكسر الحواجز التقليدية بين هؤلاء الأطراف، فتدعو القارئ إلى المشاركة الفاعلة في عملية التلقي والتأويل، وتجعله مدرّكاً لطبيعة النص كنتاج مشترك بين الكاتب والقارئ، وفي سياق ما بعد الحداثة، يعكس الميثا سرد في "شهيأ كفراق" مراجعة نقدية لسلطة السرد التقليدية، حيث يتم الكشف عن الطابع الاصطناعي والبنوي للنص، وتُطرح الأسئلة حول الحقيقة والتمثيل، ممّا يعزز من تعقيد النص ويضفي عليه عمقاً فلسفياً وأدبياً يتجاوز الحكي البسيط ليصبح خطاباً متأملاً في الذات واللغة والواقع.

*ملاح الميثا سرد في رواية "شهيأ كفراق" لأحلام مستغاني:

1- الراوي الكاتب: حضور أحلام خلف السارد:

يتبدّى في مقدّمة الرواية نوع من التوتر الخطابي لدى الكاتبة، إذ تنطلق في البداية من توجيه نصّها إلى ذاتها، قبل أن تنقلب في خاتمة المقدمة لتخاطب به فئة محدّدة من القراء، وهم "الراسبون في مدرسة الحب" تقول: "من أجل الراسبين القابعين إلى الأبد على المقاعد المدرسية، قلت لأكتب كتاباً أسرّب لهم فيه أجوبة الامتحانات عساهم لا يشقون بعد اليوم، بسبب كلمتين.. أو بسبب كم كلمة يشبهوا النسمة في ليالي الصيف كما غنى عبد الوهاب كلمات سيتحول نسيمها في شتاء الوعود إلى أعاصير"¹¹، وهذا التحول من خطاب الذات إلى خطاب الآخر العاشق يشي بنوع من المفارقة، بل ويقدر من السخرية، إذ يبدو القراء وكأنهم طلاب فاشلون في امتحان العاطفة لا يملكون أدوات الفهم العميق للنص، ومن هنا يظهر موقف الكاتبة التي ترى أنّ مسؤولية الكاتب تكمن في إنتاج المعنى لا في طبيعة يتلقاه: "وخاصة إذا غدوا شعوباً وقبائل من العشاق".

ويزداد البُعد الميتاسردي وضوحاً من خلال الحوار الذي تقيمه الكاتبة مع قرائها حول ماهية القراءة والكتابة، حيث تسألهم قائلة: "الكتابة هروب، فهل تكون القراءة كذلك؟ وهل يكون الذين يلحقون بي في الواقع أسرى سابقين، فرّوا من معسكرات الاعتقال العاطفي"¹²، واللافت هنا أنّ الإجابة تأتي على لسان القراء أنفسهم في صيغة استفهامية تنطوي على عتاب: "لماذا تأخّرت أيها الكاتب.. ثم عدت بكتاب عن الفراق؟" وهو سؤال يعبر عن حاجة القارئ إلى نصوص تداوي وجعه، غير أنّ الكاتبة لا تقدّم علاجاً بقدر ما تعمّق الإحساس بالألم: "ربما بسبب أمة أخذتك همومها من نفسك فجف من الدهول حرك". وهكذا يتجلى أنّ رواية شهباء كفراق ليست كتابة مهدّنة لآلام الفقد، وإنما هي استعادة لتلك الجراح وتكثيف لها.

أمّا التعليقات المصاحبة على الغلاف الخلفي، فهي تعكس وعي الكاتبة بذاتها ومكانتها داخل المشهد الأدبي والثقافي، إذ تسعى إلى ترسيخ صورة المرأة الكاتبة التي اقتحمت مجالات طالما كانت حكراً على الرجل، ويتجلى ذلك في الاستشهاد بكلمة إيرينا بوكوفا، حيث لم تكتف الكاتبة بذكر اسمها بل ألحقت به منصبها الرسمي: "المديرة العامة السابقة لمنظمة اليونيسكو"، ويأتي التعليق في صيغة إعلاء لمكانتها: "هي امرأة عظيمة، وكاتبة رائدة في مجالها مناضلة تنحدر من سلالة الكتاب الذين تبنّوا عبر التاريخ القضايا الكبرى"، وهذا التوظيف الرمزي تضع الكاتبة نفسها ضمن سلسلة من المبدعين الذين تجاوزوا حدود الأدب الضيق نحو حمل قضايا كبرى لتؤكد بذلك حضورها ليس فقط كروائية وإنما كصوت نسوي فاعل في الساحة الفكرية والثقافية.

كما وتهض الرواية على شكل رسائل تتوجه بها الكاتبة إلى شخصية "نسيان. كم" في محاولة لتبرير فعل الكتابة وتحديد وظيفتها، فالنص يتأسس على قناعة أنّ "علينا ألا نمنع أنفسنا من كتابة رسالة كلّما شعرنا بالحاجة لأن نقول شيئاً لأحد شرط أن نحتفظ بها لأنفسنا... وأن نقاوم الرغبة في إرسالها؛ لأننا على الأرجح سنندم لاحقاً على ما كتبناه"¹³، ومن ثمّ، جاءت فكرة الرسائل الموجهة إلى كاميليا مع الاحتفاظ بها وعدم إرسالها خشية أن تتحول إلى فضح لمكنون الذات على غرار ما وقع لبعض الكتاب الذين صارت رسائلهم مادة منشورة.

وتبدو الكتابة هنا آلية للهروب ووسيلة لـ"تهريب الأفكار"، إذ تصرّح الكاتبة: "أما قلت يوماً أنّ الرواية حقيبة لتهريب كل الأفكار الخطيرة؟ كنت أتحدث عن الأفكار السياسية"¹⁴، وبذلك تتحول الرواية إلى فضاء لتمير الأفكار السياسية والاجتماعية، وإلى ملجأ يؤتمن على الأسرار العاطفية، غير أنّ هذه الوظيفة لا تكتمل دون مفارقة، فالكتابة التي يُتوخى منها النسيان

تنقلب إلى وسيلة للتذكير الدائم: "ما يؤلمنا حقًا نكتبه ولا نقوله الكتابة بوح صامت وجع لا صوت له لكننا نفضح دوماً به وننسى أن الحبر لا ينسى"¹⁵.

وأخيراً، تفصح الكاتبة عن مشروعاتها المؤجلة بفعل الانشغال بكتابة "كتاب الفراق"، مؤكدة بأسى: "ما يحزنني أن هذه القصص تصلح لتكون أعمارروائية كبرى، ولكن لم يعد لي من وقت لكتابتها، وفي ذهني أعمال أخرى قصة حياة أبي والجزء الثاني لـ«الأسود يليق بك»، يا للحماقة، كم من الروايات اغتيلت أثناء كتابتي هذا الكتاب"¹⁶.

2/ وعيُ السرد بذاته: تعتمد أحلام مستغانمي في رواية "شهباً كفراق"، على لغة تأملية تعكس وعياً عميقاً بعملية الكتابة وفعل التأليف ذاته، تبدو الرواية وكأنها تخاطب القارئ مباشرة، متسائلة عن طبيعة النص ودوره، كأنها تقول بصراحة: "أنا رواية" حيث تتجلى هذه الذاتية في عدة مشاهد ومواقف داخل العمل، حيث تركّز الكاتبة على شرح كيفية بناء القصة، واختيار الكلمات، وتوظيف الاستعارات، مما يجعل النص ذاته موضوعاً للتحليل والنقد، وبهذا الأسلوب، تتحول الرواية إلى فضاء يعكس داخليتها ويكشف عن بنيتها، ويطرح تساؤلات حول العلاقة بين الكاتب والنص والقارئ، ما يضيف بُعداً ميتاسردياً واضحاً يميّز تجربة مستغانمي عن السرد التقليدي.

3/ التنقل بين النصوص الكتابية داخل الكتابة: تضم الرواية مقاطع تشبه اليوميات والتأملات ما يخلق إحساساً بنص مركّب متعدد الطبقات، حيث تتداخل أصوات وأساليب سردية مختلفة داخل العمل الواحد، وهذا التداخل يعكس جوهر الميتاسرد، إذ يمتزج الحكي مع فنون أدبية أخرى مثل: المقالة والخاطرة، وأحياناً يلامس السيرة الذاتية، مما يجعل النص تجربة سردية متشظية تتجاوز الحدود التقليدية وتدعو القارئ إلى استكشاف مستويات متعددة من المعنى والوعي.

4/ كسر وهم الواقع السردية: تلجأ أحلام مستغانمي في بعض اللحظات داخل رواية "شهباً كفراق"، إلى إدخال إشارات واقعية متممة تعكس تجربتها الشخصية ككاتبة، أو تستحضر شخصيات قد تبدو مألوفة لدى قرائها، أو حتى تلك التي ظهرت في أعمالها السابقة، وهذه اللمسات الواقعية تشكّل تقنية سردية متقنة تهدف إلى تفكيك الوهم السردية التقليدي الذي يغمر القارئ عادةً في عوالم القصة، فتُدْكرهم بصورة واضحة أنّ ما بين أيديهم ليس أكثر من نص أدبي مبني ومصنوع، فهذا الوعي الذاتي للنص بما هو نص، وتحطيم الحاجز الوهمي بين القارئ والخيال، يُعدّ من أبرز خصائص الميتاسرد، حيث يفتح الباب أمام قراءة نقدية تثير التساؤلات حول طبيعة السرد، حدود الواقع والخيال، وعلاقة الكاتب بالنص

وجمهوره، وعلى هذا الأساس، تدعو مستغاني القارئ إلى تأمل عملية الكتابة نفسها، وإلى استكشاف ما وراء السرد، مما يثري التجربة الأدبية ويجعلها أكثر عمقاً وتفاعلاً¹⁷.

5/ الموقف من اللغة والهوية:

تنخرط أحلام مستغاني في رواية "شهيأ كفراق"، في تأمل عميق ليس فقط في مضامين الحكاية، بل في اللغة ذاتها بوصفها أداة للبوح وللتشكيل الفني، وتتكرر داخل الرواية تساؤلات حول الكتابة بالعربية، وحول هوية الكاتب العربي في زمن متحوّل، وأحياناً تحضر إشارات إلى الترجمة كفعل يُعيد صياغة المعنى والذات في آن واحد، وهذه التساؤلات التي تتعلّق بالبنية أكثر من تعلقها بالمحتوى تكشف عن انشغال الرواية بما وراء السرد، أو بما يُعرف بالميتاسرد، الذي يُعيد النظر في أسس العمل الأدبي، فالميتاسرد في "شهيأ كفراق" يُستخدم كوسيلة لمساءلة كبرى تتعلّق بمفاهيم مثل: الحب، الذاكرة، الهوية، والكتابة، فالنص يعيش حالة من التأمل الذاتي المستمر، ويقف على حافة الانهيار بين الحقيقة والتخييل، حيث تنصهر شخصية الكاتبة بالرواية، ويصبح القارئ شريكاً في لعبة السرد، لا متلقياً سلبياً، وهذه الخاصية تضع الرواية بامتياز ضمن أدب ما بعد الحداثة، بأسلوبها المكسور، ووعياها المتكرر بذاتها، وهدمها للحدود الصارمة بين الواقعي والمتخيّل، بين الكاتب والشخصية، بل حتى بين النص وقرائه، وهكذا تتحوّل الرواية إلى فضاء تأملي متداخل، يشغل القارئ بأسئلته أكثر مما يُقدّم له أجوبة، ويُعيد تعريف معنى الحكاية، لا بوصفها نهاية مغلقة، بل بوصفها سيرورة مفتوحة تنبع من قلق اللغة وارتباك الهوية.

4 / دور الميْتا سرد في الفهم الثقافي:

يُظهر الميتاسرد في الأدب العربي وجهاً متجدداً للسرد، إذ ينهض بوظيفة مزدوجة تجمع بين التأمل النقدي والتفاعل الثقافي، ما يجعله أداة فاعلة لتوسيع أفق الفهم الجمالي والاجتماعي للنصوص، فبدل أن يظلّ النصّ منغلّقاً على ذاته، يفتح الميتاسرد المجال لحوار ديناميكي بين الكاتب والقارئ، يُطرح فيه السؤال كغاية جمالية وفكرية، وبهذا المعنى، يتحوّل الميتاسرد إلى فضاء للتفكير الأدبي من داخل النص، حيث يُعيد الكاتب مساءلة أدواته، ويضع القارئ أمام وعي مركّب بالكتابة وبالعالم، ومن خلال هذا الانخراط الواعي في بنية السرد، يتمكن الأدب العربي من استكشاف قضايا تتجاوز التخيّل الفني إلى مساءلة الواقع العربي المعاصر، بما يحمله من تحولات اجتماعية، وهزّات ثقافية، وإرث حضاري متداخل، وعليه، فإنّ الكتاب العرب يستخدمون الميْتا سرد بوصفه آلية لتحليل بنية المجتمع، واستبطان أسئلة الهوية، وتفكيك علاقة الفرد بالجماعة، والكاتب بالقارئ، والنص بالواقع، فهو تجريب جمالي ومعرفي

يُعيد للأدب دوره العميق في تشكيل الوعي الجمعي، وإنتاج قراءة ناقدة للذات العربية في مرآة السرد¹⁸.

ويُعدّ الميْتا سرد أداة سردية تمنح الكتّاب قدرة مضاعفة على تجاوز البنية التقليدية للنص الأدبي، عبر دمج التجربة الذاتية بالتأمل في فعل الكتابة نفسه، فمن خلال التلاعب المتعمد بشكل السرد ومحتواه، يتحول النص إلى مساحة مزدوجة: واحدة تحكي، وأخرى تفكر في ما تحكيه، وهذه الازدواجية تُمكن الشخصيات من امتلاك وعي ذاتي داخل العمل؛ كونه أداة لرصد التحولات التاريخية والاجتماعية التي تُعيد تشكيل الذوات والهويات، ليصبح الميْتا سرد وسيلة للكشف عن موضوعات معقدة مثل: الهويات الهجينة، والتمزق الثقافي، والتمهيش، حيث لا يقتصر دور السرد على تمثيل هذه القضايا، بل يُفكّكها من الداخل، وعلى هذا النهج، يُقدّم الأدب رؤية متعددة الطبقات للعالم، تتيح للقارئ تأمل الواقع لا بوصفه معطى نهائياً، وإنّما بوصفه سؤالاً مفتوحاً تطرحه الكتابة وتحاول إعادة صياغته، ليتحوّل النص الميْتا سردي من قصة تُروى إلى خطاب نقدي مفتوح، يعكس توتر العلاقة بين الفرد والمجتمع، بين الكاتب والتاريخ، ويُعيد الاعتبار للأدب كوسيلة لفهم الذات والواقع في آنٍ معاً¹⁹.

كما يُجسد الميْتا سرد في الأدب العربي قدرة الكتّاب على تبني أساليب جديدة في السرد تعكس تطور الفكر النقدي وتقديم تجارب غنية للقارئ، فمن خلال استكشاف العوالم المختلفة وتفكيك البنى السردية التقليدية يستمر الميْتا سرد كأداة قوية للتعبير والتحليل مما يفتح آفاق جديدة لفهم الأدب والثقافة، حيث يدعو هذا النوع من السرد إلى إعادة التفكير في التقاليد الأدبية وضرورة تجديدها في السياقات الثقافية المتغيرة، مما يجعل منه عنصراً حيوياً في الحركة الأدبية العربية المعاصرة²⁰.

ويمكن النظر إلى الميْتا سرد في جوهره بوصفه تحوّل معرفي وفلسفي في فهم وظيفة الأدب وعلاقته بالثقافة والمجتمع، فهو يُعيد تشكيل شروط الحكي ذاته، كاشفاً عن البنية الاصطناعية للنص، وعن تواطؤ القارئ مع الأوهام السردية، ما يضع القارئ في موضع مساءلة دائمة، ويُحمّله مسؤولية المشاركة في إنتاج المعنى، فمن خلال هذه العملية، يتحوّل النص الأدبي إلى مساحة حوار ديناميكي بين المبدع والمتلقي، وبين النص وسياقاته المرجعية، ما يُفضي إلى توسيع أفق الفهم الثقافي والنقدي، كما لا يُعالج الميْتا سرد القضايا الكبرى مثل: الهوية، والسلطة، والتاريخ، بقدر ما يُعيد تأطيرها ضمن تساؤلات بنيوية حول من يروي؟ ولماذا؟ وكيف يُبنى الواقع داخل النصوص؟

وفي السياق العربي، يمنح هذا الشكل السردى الأدب قدرة على الانخراط في القضايا المعاصرة - من التغيرات الاجتماعية والسياسية، إلى الأسئلة المرتبطة بالهوية والتعدد الثقافي -

دون الوقوع في فخّ المباشرة أو التقريرية، فالميثا سرد يُتيح للكتّاب أدوات للتجريب، وللقراء فرصاً لفهم أكثر تعقيداً للعالم عبر قراءة واعية تفكّك أبعاده اللغوية والسردية والثقافية، وهكذا يُساهم الميثا سرد في تجديد الخطاب الأدبي العربي على مستوى الرؤية، ليبقى الأدب العربي حاضراً وفاعلاً في طرح الأسئلة الجوهرية عن الذات والمجتمع والتاريخ واللغة، وهو ما يمنحه قوة البقاء والاستمرار في وجه التحولات الكبرى.

5/ دور الميثا سرد في تفكيك السرد التقليدي وتوسيع حدود الرواية:

أ/ تفكيك السرد التقليدي:

يُعدّ الميثا سرد من الأدوات الأدبية التي تساهم بشكل فعّال في تفكيك السرد التقليدي، فهو يعمل على تجاوز البناءات التقليدية للرواية مشيراً إلى كيفية تشكيل الروايات لفهمنا للأحداث والعالم، حيث يثير هذا النوع من السرد تساؤلات حول الطريقة التي يتم بها تقديم المعلومات وكيفية تفاعل الشخصيات مع الأحداث والراوي، فعندما يتبنى الكتّاب أسلوب الميثا سرد، فإنهم يشيرون بوضوح إلى هيكل الرواية وأسلوب السرد ذاته، مما يمكن القارئ من رؤيته كعملية فكرية فصلية، وعلى سبيل المثال من خلال إدراج عناصر مثل: التأمل الذاتي، يُعيد الميثا سرد تعريف الشخصيات كسرد ذاتها مما يساهم في خلق الوعي حول كيف يتم بناء الحكايات وطرق تقديم الأحداث، وهذه الديناميكية تحدّد علاقة القارئ بالنص وتُمكنه من تكوين فهم أعمق لأنماط السرد والرموز الثقافية والأدبية المعنية.

ب/ توسيع حدود الرواية:

يُساهم الميثا سرد أيضاً في توسيع حدود الرواية من خلال استخدام أساليب غير تقليدية مثل السرد الذاتي وتجربة القارئ، حيث يعمل هذا النوع من السرد على دعوة القراء لإعادة التفكير في ما يعنيه أن نكون "قراء"، وغالباً ما يتضمن الميثا سرد إشارات مباشرة للقراء والكتابة ممّا يخلق وعياً نقدياً يمكنه تعزيز التجربة القرائية، فعلى سبيل المثال يمكن أن يتضمن النص إشارات إلى كيفية تلقي القارئ للأحداث أو كيف يمكن أن تتداخل الأحداث الواقعية مع الخيالية، فمن خلال هذا التفاعل يُدخل الكتّابُ القراء في عملية تأويل النصوص مما يجعلهم جزءاً فعّالاً من السرد في تحقيق نوع من التجربة المشتركة بين القارئ والنص، كما أنّ هذا النوع من السرد يساهم في تقويض الفكرة التقليدية للسرد الخطي ممّا يدفع القراء لاستكشاف النماذج والتعقيدات الرؤيوية للسرد، فعملية توسيع حدود الرواية بهذه الطريقة يُثري الفهم الأدبي ويُعزّز من قدرة الأدب على استيعاب التنوع والغموض الموجود في التجربة الإنسانية.

كما يُعد الميتاسرد تحولاً عميقاً في طبيعة الكتابة الروائية، إذ يُعيد تشكيل الرواية كفضاء للتفكير في ذاتها، حيث يكون القص موضوعاً للتأمل والتشريح، فمن خلال هذا الوعي الذاتي، تتجاوز الرواية دورها الكلاسيكي لتصبح ميداناً لتفكيك المفاهيم السردية الراسخة، وإعادة صياغة العلاقة بين الكاتب والنص والقارئ، وهكذا لا يُقدّم النص كحقيقة متماسكة، بل كمجال مفتوح للشك وإعادة القراءة، ما يُعمّق من الوعي النقدي، ويمنح القارئ دوراً تفاعلياً في إنتاج المعنى، وفي هذا السياق، فالميتاسرد يكشف عن آليات تمثيله، ويحوّل الرواية إلى تجربة معرفية تُعبّر عن تعدّد الأصوات والهويات وتواكب تحولات الفكر واللغة والمجتمع، ليؤكد في النهاية أنّ الأدب ليس فقط مرآة للواقع، بل وعيٌ بمراياه المتكسرة.²¹

ج/ استكشاف اللغة: التهمكُم والميتاسرد: تتجلى علاقة مركّبة وعميقة بين اللغة من جهة، وبين مفهومي التهمكُم والميتاسرد من جهة أخرى، حينما تتحوّل اللغة من مجرد أداة لنقل المعنى إلى ميدان للتفكيك والتأمل الذاتي، فاللغة في الأدب الميتاسردي تُستخدم تُفكّك وتُشظى لتكشف عن التنافر بين ما تُشّهد الكلمات ظاهرياً وبين ما تُخفيه من طاقات تأويلية، فالتهمكُم هنا لا يكتفي بالتنبيه إلى الزيف أو المفارقة في الواقع، حيث يستعمل اللغة نفسها كأسلوب استفزازي يُظهر هشاشة التعبير أمام التعقيد البشري، أمام اضطراب الهوية وأمام التناقضات التي يصنعها الزمن والمكان والثقافة والذاكرة، ففي النص الميتاسردي، تصبح اللغة مضادة من الداخل: تُسائل قواعدها، وتختبر حدودها، وتُعيد ترتيب مفرداتها كي تكشف عن الاحتياج الإنساني للمعنى، والمأزق ذاته عن الإمساك به، فاللعب اللغوي استكشافٌ لأدواته: الاستعارات، الاستعارات المضادة، التناص، التورية، التكرار المفاجئ أو التوقف المفاجئ عن السرد، كل ذلك يُشكّل فضاءات فجوة بين ما يُقال، وما يفهم هذه الفجوة وتدفع القارئ إلى الإدراك بأنّ اللغة هي عنق للزجاجة التي يمرّ عبرها المعنى بحذر، وقد يتغيّر بحسب الزاوية التي يُطلّ منها.²²

إن اللغة التفكيكية، في سياق الميتاسرد، تمكّن الكاتب من استدعاء تجارب إنسانية لا تُحكي بسهولة، من صراعات داخلية، من خيبات وأمل، من حضور الغياب، ومن حيرة الذات بين ما هي وما تحاول أن تكون اللغة في هذا النمط السردي تُصبح ضمير النص، وحاسة ناقدة، تضع نفسها موضع السؤال لا فقط الكلام، وتحوّل الحكى إلى فعل يُدرك نصه، يُنتقد أدواته، ويُعيد بنائه، واضعاً القارئ أمام المفاجأة، وصدق الإشكال ومرارة الحقيقة التي قد لا تُقال، ولكن تُشعر بها الكلمات عندما تتعرضها نقائص اللغة هي ذاتها.

*تفكيكُ اللغة: تتحول اللغة في الميتاسرد العربي المعاصر من أداة حيادية للتواصل إلى مساحة للنقد الذاتي والتشكيك، حيث يعمل الكتاب على تفكيك بنيتها وتعرية قدرتها

المحدودة على تمثيل الواقع. يتجلى هذا التحول من خلال استعمال التهم كإستراتيجية واعية لفرض التناقضات الكامنة في الخطاب الأدبي والاجتماعي، إذ يُوظف التهم بوصفه عنصراً ميتاسردياً لتقويض يقينيات السرد الكلاسيكي، مما يُبرز الفجوة بين ما تقوله اللغة وبين ما تُخفيه من دلالات خاضعة للسياق والسلطة، وبهذا، يتجاوز النص دوره التمثيلي، ليصبح ممارسة تأملية تُسائل السرد من داخله، حيث تتوازى عملية الحكم مع عملية التفكيك، ومن خلال هذه البنية المزدوجة، يعكس الميتاسرد تحولات الوعي الثقافي والاجتماعي، ويعيد تشكيل العلاقة بين الكاتب والقارئ والنص، بوصفها علاقة تفاعلية مفتوحة لا تُقاس فقط بما يُروى، بل بكيفية روايته وما يُخفيه من قلق معرفي وجمالي.

د/ تفكيك الأفكار التقليدية وتأثيره على القارئ:

يعدّ الميتا سرد أحد أبرز الأدوات التي توظفها الكتابة ما بعد الحداثيّة لتقويض السلطة السردية التقليدية إذ ينخرط في مساءلة آليات السرد ذاتها وكشف خلفياتها الإيديولوجية والثقافية، فمن خلال الميتا سرد يُعاد توجيه النص ليصبح واعياً بذاته مما يسمح بتفكيك الأفكار الموروثة والمسلّمات التي لطالما حكمت العملية السردية مثل: مركزية المؤلف أو مصداقية الراوي أو خطيّة الحكمة، وهذا التفكيك يتم من خلال زعزعة الحدود بين الواقعي والمتخيل وكشف البنية المصطنعة للنصوص، ففي روايات الميتا سرد يصبح السرد ذاته موضوعاً للتمثيل مما يتيح للمؤلف والقارئ على حد سواء فرصة للتأمل في القواعد التي تُنتج المعنى وتمنحه سلطة، ومن هنا، لا تُعطى الحقيقة كما هي، بل يُشار إليها بوصفها بناءً قابلاً للتفاوض والمساءلة.

أما على صعيد القارئ، فإنّ هذا النهج الميتا سردي يحفّز عملية القراءة النقدية التفاعلية، إذ يُجبر القارئ على مراجعة مفاهيمه السابقة حول "الواقع" و"السلطة" و"المعنى"، فلم يعد القارئ يتلقى المعنى بشكل سلبي، بل يشارك في إنتاجه ويُطرح عليه سؤال ضمني: إلى أيّ مدى تشارك أنت -كقارئ- في صناعة الحقيقة؟ وهكذا يتحول القارئ من مستهلك سلبي إلى متلقٍ فاعل واعٍ بالخدع السردية ومشارك في تفكيكها.

فمن خلال هذا المسار، يُساهم الميتا سرد في زعزعة السلطة التقليدية للنصوص ويمنح القارئ إمكانية تجاوز الإملاءات الإيديولوجية والثقافية التي طالما حكمت علاقة النص بالواقع، ومن أمثلة ذلك: رواية زمن الغبار ورواية الملائكة لا تطير للكاتبة فاطمة بن محمود، حيث تُعدّ هذه الرواية مثلاً بارزاً على استخدام الميتا سرد لتقويض السلطة المعرفية والدينية، فبالإضافة إلى كونها رواية سياسية اجتماعية تدور في وسط سياسي عربي تنخرط الرواية في مساءلة الواقع السياسي الديني العربي من خلال شخصية فاطمة بن

محمود التي تدخل في الرواية من خلال الميتا سرد او الخطاب الواصف الذي يشك في صحة من خلال حالة القلق التي تعيشها الكاتبة التي تلفت انتباه القارئ من خلالها لتحديث زعزعة في البنية السردية تكسر من خلالها فكرة الإيهام بالواقع خلق وهو ما يخلق شكاً لدى القارئ ويدفعه إلى التساؤل عن موثوقية كل سلطة معرفية²³.

تكشف دراسة الميتاسرد في ضوء مناهج ما بعد الحداثة عن تحول عميق في وظيفة السرد من وسيلة لنقل المعنى إلى أداة لتفكيك بنياته ومن مرآة تعكس الواقع إلى فضاء يعيد مساءلته وبنائه، فالوعي السردى أصبح خطاباً نقدياً يستهدف بنى السلطة في اللغة والتمثيل والتاريخ، وقد اتضح من خلال النماذج الروائية العربية لفاطمة بن محمود وأحلام مستغانمي - أن الميتاسرد يتقاطع بعمق مع الإشكاليات الثقافية للهوية الذاكرة والانتماء حيث أصبح الكاتب يدعو القارئ إلى التورط في إنتاج المعنى ضمن لعبة سردية تتسم باللايقين والتهكم، كما أن هذه الروايات تبرهن على أن الميتاسرد العربي ليس استيراداً لأساليب ما بعد الحداثة الغربية بقدر ما هو إعادة توطين لها ضمن سياقات محلية مأزومة تاريخياً وثقافياً ما يجعله شكلاً من المقاومة الجمالية التي تقاوم الهيمنة لا بالرفض الصريح، بل بالتقويض الساخر واللعب النقدي.

خاتمة:

يتضح من خلال تتبع الممارسة الميتاسردية أن هذا الاتجاه انبثق بوصفه تحولاً معرفياً وجمالياً عميقاً في فهم وظيفة السرد ووعيه بذاته، فالميتاسرد يعكس انتقال الرواية من كونها فضاءً محكوماً بقواعد الحبكة الخطية والوهم الواقعي إلى كونها ممارسة نقدية تُفكك نفسها وتُضيء آليات إنتاجها، ليتجاوز النص الأدبي حدود التمثيل التقليدي، ليغدو خطاباً واعياً يُعري لغته، ويُفكك سلطته، ويضع القارئ شريكاً في بناء الدلالة لا مجرد متلقٍ سلبي، لتنتج الرواية على ذاتها لا لتؤكد اكتمالها، بل لتفضح هشاشتها وتعلن عن قابليتها للتشكّل والتأويل، فحضور مفاهيم مثل: كسر الإيهام، وتفكيك البنية الحكائية، وزعزعة سلطة السارد، واللعب بالزمن والضمائر، ضرورة تأويلية لفهم ما يُنتجه الميتاسرد من أسئلة جوهرية حول الهوية، والحقيقة، واللغة، والمعنى، لتتحول الرواية من كيان يحاكي الواقع إلى كيان يُعيد بناء الواقع ويُعلّق عليه، بما يجعل الميتاسرد علامة فارقة في انزياح الأدب العربي نحو أفق حدائي جديد، أكثر وعياً باللغة، وأكثر انخراطاً في مساءلة الواقع عبر تفكيك صيغ تمثيله نفسها.

الهوامش:

- ¹ - ينظر: أحمد عادل غازي محمود، جماليات الميثا سرد في فنون ما بعد الحداثة ، مجلة بحوث في التربية الفنية والفنون، المجلد 21 ، العدد 1، كلية التربية الفنية ، جامعة حلوان، 20 يناير 2021، ص: 290
- ² - رنا فرمان محمد الربيعي، الوثيقة والتخيل التاريخي في روايات علي بدر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، إشراف: ناهضة ستار عبيد، جامعة القادسية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1032م-3211هـ، ص: 37.
- ³ - ينظر: فضل ثامر، ميثا سرد ما بعد الحداثة، مجلة الكوفة ، السنة 1، العدد 2، شتاء 2023، ص: 63.65.67.
- ⁴ - ينظر: أحمد عادل غازي محمود، جماليات الميثا سرد في فنون ما بعد الحداثة، ص: 290.
- ⁵ - محمد عناني : المصطلحات الأدبية الحديثة ، دراسة ومعجم انجليزي عربي ، مؤسسة هنداي للنشر، يورك هاوس شبيت ستريت ، وندسور ، المملكة المتحدة ، 2023، ص: 278.
- ⁶ Gérard Genette, Narrative Discourse: An Essay in Method, trans. Jane E. Lewin, foreword by Jonathan Culler, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1980p46
- 7 عباس عبد جاسم: ما وراء السرد ما وراء الرواية، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ط 1، 2005، ص: 28.
- ⁸ - عباس عبد جاسم: ما وراء السرد ما وراء الرواية، ص: 26.
- ⁹ - جميل حمداوي : أشكال الخطاب الميثا سردي في القصة القصيرة بالمغرب، 2009، ص: 4.
- ¹⁰ - ينظر: جميل حمداوي، الميثا سرد في القصة القصيرة بالمغرب، المغرب، ط 1، 2018، ص: 16.
- ¹¹ - أحلام مستغانمي: شهباء كفراق ، نوفل هي دمغة الناشر، بيروت، لبنان، د ط، 2019، ص: 16.
- ¹² - المرجع نفسه: ص: 17.
- ¹³ - أحلام مستغانمي: شهباء كفراق: ص: 84.
- ¹⁴ - المرجع نفسه: ص: 83.
- ¹⁵ - المرجع نفسه: ص: 88/87.
- ¹⁶ - المرجع نفسه: ص: 197.
- ¹⁷ - ينظر: حسينة فلاح، الخطاب الواصف في ثلاثية أحلام مستغانمي، منشورات تحليل الخطاب، 2012، ص: 17.18.
- ¹⁸ - ينظر: سعيد يقطين، الميثا روائي في الخطاب الروائي المغربي الجديد، مجلة المواقف، العدد 70.71، فبراير، 1993، ص: 192.
- ¹⁹ - جميل حمداوي، الميثا سرد في القصة القصيرة بالمغرب، ط 1، 2018، ص: 44.45.46.
- ²⁰ - ينظر: فاضل ثامر: ميثا سرد ما بعد الحداثة، ص: 73.74.
- ²¹ - ينظر: محمد حمد، الميثا قصص في الرواية العربية، مرايا السرد النرجسي، مجمع القاسي للغة العربية وآدابها، حيفا، ط 1، 2011، ص: 32.34.36.
- ²² - ينظر: محمد حمد، الميثا قصص في الرواية العربية، مرايا السرد النرجسي، ص: 45.46.
- ²³ - ينظر: سعيد يقطين، الميثا روائي في الخطاب الروائي المغربي الجديد، ص: 185، 186.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1/ أحلام مستغانمي: شهيا كفراق، نوفل هي دمغة الناشر، بيروت، لبنان، دط، 2019.
- 2/ جميل حمداوي، الميثا سرد في القصة القصيرة بالمغرب، ط1، 2018.
- 3/ عباس عبد جاسم: ما وراء السرد ما وراء الرواية، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ط1، 2005.
- 4/ محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، دراسة ومعجم إنجليزي عربي، مؤسسة هندواي للنشر، يورك هاوس شبيت ستريت، وندسور، المملكة المتحدة، 2023.
- 5/ محمد حمد، الميثا قص في الرواية العربية، مرايا السرد النرجسي، مجمع القاسي للغة العربية وأدائها، حيفا، ط1، 2011.
- 6/ حسينة فلاح، الخطاب الواصف في ثلاثية أحلام مستغانم، منشورات تحليل الخطاب، 2012.
7. Gérard Genette, Narrative Discourse: An Essay in Method, trans. Jane E. Lewin, foreword by Jonathan Culler, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1980
- 8/ أحمد عادل غازي محمود، جماليات الميثا سرد في فنون ما بعد الحداثة، مجلة بحوث في التربية الفنية والفنون، المجلد 21، العدد 1، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، 20 يناير 2021.
- 9/ فضل ثامر، ميثا سرد ما بعد الحداثة، مجلة الكوفة، السنة 1، العدد 2، شتاء 2023، صص: 63.65.67.
- 10/ سعيد يقطين، الميثا رواي في الخطاب الروائي المغربي الجديد، مجلة المواقف، العدد 70.71، فبراير، 1993.
- 11/ رنا فرمان محمد الربيعي، الوثيقة والتخيل التاريخي في روايات علي بدر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، إشراف: ناهضة ستار عبيد، جامعة القادسية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، 1032م 3211.